

١٥ - شفاعات ذوي القربى

قال الإمام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه^(١) -:

العلم خيرٌ من المال.

العلم يحرسك وأنت تحرسُ المال.

العلم يزكو على العمل والمال تنقصه النفقة.

العلم حاكمٌ والمالُ محكومٌ عليه.

صناعةُ المالِ تزولُ بزواله، ومحبةُ العلمِ دينٌ

بدان بها.

العلمُ يكسبه الطاعة في حياته وجميلُ
الأحدوثة بعد مماته.

مات خُزَّانُ المال وهم أحياء، والعلماء باقون
ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في
القلوب موجودة.

هذا رأي الإمام علي - رضي الله عنه - في
العلم الذي هو رسالة وزارة المعارف.

وبهذا الأثر الخالد كنت أنظر لرجال وزارة
المعارف فهم ذوو القربى في العلم؛ لأن العلم
رَحِمٌ بين أهله، وهم بُناة المستقبل، وصُنَّاع الغد
وهم العاملون في حقول الفضيلة، وأنهار الخير.

ورجالٌ هذه بضاعتهم، وتلك صفتهم فإن
التعامل معهم يجب أن يسوده الاحترام
والتقدير، والعمل بينهم يلزمه القدوة والعدل.

ولهذا كنت أجد صعوبة في التوفيق بين
مطالب شخصية تعنُّ لأحدهم، وعدالة يجب
أن يعامل بها الجميع، خاصة والوزارة تنشد
رضا المعلمين وتعمل على إكرام المربين.

ومن الصور التي ظلت في الذاكرة أن بعض
الإخوة العاملين في حقل التعليم من معلمين
ومديري مدارس وموجهين وغيرهم من رجال
التربية والتعليم يرون - ويحق لهم ذلك - أن
لهم حظوة ومكانة، وأن لهم أولوية ودالة؛

ولهذا كم يؤلمني عندما يزورني أحدهم في
المكتب ويطلب تعيين ابنه أو قريبه في هذا المكان
أو ذاك أو قبول ابنه أو أحد أقاربه في هذه الكلية
أو تلك، ويظن أنني أملك استثناءه من الضوابط
والتعليمات ويعتقد أن الأمر يسير؟.

زارني أحد الموجهين في المكتب وقدم خطاباً
يقول فيه:

سعادة وكيل الوزارة..

ولدي... هو باكورة العمر الذي أوشك
على الأفل، وآمل أن تقبل شفاعتي فيه فهي
-والله - صادقة.

وأرفق باستدعائه قصيدة تحكي رحلة العمر

مع التعليم يقول فيها:

بعتُ للنشء والشباب حياتي

ورضيت الجزاء بعد مماتي

سوف ألقى من الإله ثوابي

فهو ربي يمين بالحسنات

وكفاني من الزمان جهاد

وكفاح بصائب الخطوات

وكفاني كم شاعر وأديب

ومربٍ وصلتهم بصلاتي

وكفاني محبتي لبلادي

فهي عندي من أعظم الغايات

شرف أن قضيت عمراً طويلاً
في ثلاثين من سنيّ حياتي
ويتضح من قصيدته أنه قضى ثلاثين عاماً
في خدمة التعليم ويرجو أن تشفع له هذه
السنون في الاستجابة لطلبه.

وكنت حائراً بين نظام وعواطف، وبين
عدالة وتربية للجهاز التنفيذي، ورغبة هؤلاء
الفرسان الذين أمضوا العمر في خدمة التعليم.

وصورةٌ أخرى لموجهين من خيرة الموجهين
في تعليم الرياض، فقد زارني الرجلان ولهما
دالة ومكانة، وطلبا نقل ابنيهما اللذين عُينا

مدرسين في منطقة بعيدة، ولكني لم أستطع
فالنظام لا يسمح بذلك ولا يمكن استثناءهما
وقد استغرب الرجلان وعابا عتاب المحب
ولاما لوم الصديق، وعرفت في نظريتهما
الوادعتين ذلك الأسى والألم.

وكم كان ألمي أكبر وأسفي أقوى لعدم
الاستجابة لرغبتهما، وكتبت لهما رسالة اعتذار
لأزيل تلك الجفوة فعطاؤهما أنشدُ غزارته
وبذلهما أتمنى انهماه يقول الإمام علي - رضي
الله عنه ^(١) - : كُلُّ شَيْءٍ يَعِزُّ إِذَا نَزَرَ مَا خِلا
العلم فإنه يعِزُّ إِذَا غَزُرُ ^(٢).

(١) معجم الأبناء: ٦٦/١.

(٢) نَزَرَ: قل وأصبح نادراً. غَزَرَ: زاد وأصبح كثيراً.

وموجه تربوي آخر أسعفه البيان الشعري في
عرض شفاعته لنقل ابن عمه يقول في قصيدة
قدمها مع استدعاء يشرح فيه الطلب ويشير إلى
لوم عمه وأبيه إذا لم يشفع يقول:

لديك أبا تركي انعتاقي وكربتي
ومنك عَقَارُ الحقِّ هل أنت واهِبُهُ؟
فإن ابنَ عمِّي بل وعمِّي ووالدي

رأوني وجيهاً فيكَ قد عزَّ جانبُهُ
يريدون أن أسعى لديك بمطلب
وإنِّي وإن أُخْرِجْتُ فيه لطالبُهُ
فحاولني عمِّي وحين اعتذرتُهُ

مخافة إخراجٍ لديك أجنبيُّهُ

أثار أبي الشيخَ العجوزَ فلامني
وعنَّفني حتَّى تساقطَ حاجبُهُ
وشكَّ في برِّي به ومروءتي
وحلَّفني بالله ألاَّ أغاضِبُهُ
رأى بره برًّا يُطالُ ابنُ أمِّه
وأنَّ اعتذاره عُقُوقٌ عواقِبُهُ
فهذا ابنُ عمِّي قد أتاك برغبة
يُؤمِّلُ أنْ يلقي الذي هو راغِبُهُ
فإنَّكَ إنْ أكرمتني فيه أكرمتَ
عيونَ أبي والتدَّ بالنوم جانبُهُ

ويتضح من هذه الصور المتعددة حجم المعاناة
التي يجدها المسؤول التعليمي ومدى الحساسية

التي يتعامل بها مع رجال التعليم ومنسوبيه.

ولهذا كنت معهم كما قال الشاعر المتنبي:

لا خيل عندك تهديها ولا مال

فالسعد النطق إن لم يسعد الحال

كنت أحاول استرضاءهم بالكلمة الطيبة
والاستقبال الحسن، وأبذل الجهد برفق
لإفهامهم أن الوزارة تلتزم منهج القدوة والحزم
وأن النقل والتعيين يتم وفق ضوابط وأسس
معلنة للجميع، وأنه في حالة التساهل مع هذا
وذاك فإن التجاوزات تتابع والحجج تتوالى
كيف ونحن وزارة العلم والتربية وبانية
الأخلاق والقيم وصاحبة المثل والقدوة.